

أهل كتاب، وأهل علم، وفيهم إيمان، إلا أن الله سلب عليهم هذا
الذي لا يعرف الله؛ لأنهم تركوا أمر الله سبحانه وتعالى، فسلط الله
الجوي عدواً ملحقاً كافراً، مع أنهم أهل إيمان وأهل دين، لكن لما تركوا أمر
عليهم

فَإِذَا كَانَ النَّاسُ عَلَى دِينٍ وَصَلَحٍ؛ يَسِّرَ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ الْوَلَاةِ مِنْ فِيهِ خَيْرٌ وَفِيهِ صَلَاحٌ، وَإِذَا كَانَ النَّاسُ عَلَى فُسَادٍ وَمَعْصِيَةٍ؛ سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْوَلَاةِ مَنْ يَسُوْمُهُمْ سَوْءَ الْعَذَابِ، وَقَدْ جَاءَ فِي الْأَثَرِ: «كُنْ أَمْكُورًا يُؤْتِي أَعْلَمُكُمْ» (١).

فالأوجب على الناس أن ينضروا إلى الله، وأن يتوبوا إلى الله؛ حتى يصلح لهم
فصلاح ولاية الأمور للرعية، وظلم ولاية الأمور عقوبة على الرعية.

وقوله: **وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ شَرًّا جَعَلَ أَفْرَهُمْ إِلَى سُفْهَانِهِمْ**)، فيجعل أفرأهم بأيدي السفهاء، الذين يخلون بها، ويضنون بها على الخير، ويتشاغلون بالربا وأكل أموال الناس بالباطل، أما إذا أراد بهم خيراً جعل الأموال بأيدي السحاة الذين ينفقونها في سبيل الله، ويساعدون بها المحتاجين.

فالسلاطين يسقطهم الله على العباد بذنوبهم، فإذا منعوا الزكاة، وتعاملوا بالربا، وأكلوا أموال الناس بالباطل، ابتلوا بشدة المؤنة، وجور السلطان، ولو

أخرجه ابن جميع في معجم الشيخ (ص ١٤٩)، والقضاعي في مسند الشهاب (١/ ٣٣٦) عن أبو بكر: **وَجَدْتُكَ وَفَعَهُ**. قال السخاوي في المقاصد الحسنة (ص ٥٢٠): «في سننه مجاهد».

تعليقات على الجواب الكافي

وَيَتَخَنُّ فِي الْأَرْضِ، تَمَّا عَلَامَةُ غَضَبِكَ مِنْ رِضَالِكَ؟ قَالَ: إِذَا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ خِيَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ رِضَائِي عَنْكُمْ، وَإِلَّا اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ فَهُوَ مِنْ عَلَامَةِ غَضَبِي عَلَيْكُمْ. (١)

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا عَنِ الْقَضَائِيِّ بْنِ عِيَاضٍ قَالَ: «أَوْحَى اللَّهُ إِلَى بَعْضِ

وَذَكَرَ أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ يُرْوَعُهُ: «الَّذِي تَفْسِي بِبَلَدِهِ، لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ أُمَرَاءَ كَذِبَةٍ، وَوُزَرَاءَ قَبْرَةٍ، وَأَعْوَاثًا خَوْنَةً، وَعُرَفَاءَ ظُلْمَةٍ، وَرُؤَسَاءَ نَفْسَةٍ، يَسَاءُ لَهُمْ سِيسَا الرُّهْبَانِ، وَقُلُوبُهُمْ أَنْتَنُ مِنْ الْجَيْفِ، أَهْوَأُهُمْ مُحْتَفِفَةٌ، يَبْتَغِ اللَّهُ هَمَّ فِتْنَةٍ غَيْرَاءَ مُظْلِمَةٍ فَبْتَهَا وَكُونَ فِيهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَيَقْتَضِىَ الْإِسْلَامُ عُرُوَّةَ عُرُوَّةٍ، حَتَّى لَا يَقْتَالَ: اللَّهُ، اللَّهُ، تَسْأَلُونَ بِالْعُرُوفِ، وَتَنْتَهُوْنَ عَنِ الْكُفْرِ، أَوْ لَيْسَ لَطَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ أَشْرَارَكُمْ، فَيَسُومُ مَوْتَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، ثُمَّ يَدْعُو خِيَارَكُمْ فَلَا يَسْتَجَابُ لَهُمْ. تَسْأَلُونَ بِالْعُرُوفِ، وَتَنْتَهُوْنَ عَنِ الْكُفْرِ، أَوْ لَيْسَ لَطَنَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ مَنْ لَا يَزِيحُكُمْ صَغِيرُكُمْ، وَلَا يَدْفِقُكُمْ كَبِيرُكُمْ» (٣).

شرح:

(بِخُصْمٍ) هذا ملك فارس، سلطه الله عزَّ وجلَّ على بني إسرائيل، مع

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد على الزهد (١٥٨٢)، وابن أبي الدنيا في العقبات (٣٢).

(٢) أخذ من أي اللصاف في العقوبات (٣٣).

(٣) إنَّه أُلْحِقَ بِالدُّنْيَا فِي الْعُقُوبَاتِ (٣٤).

وَفِي مُعْجَمِ الطَّبْرَانِيِّ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ:
قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا طَقَفَ قَوْمٌ كَيْلًا، وَلَا بَحَسُوا مِيزَانًا، إِلَّا
مَتَّعَهُمُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْقَطْرَ، وَمَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ الزَّانَا إِلَّا ظَهَرَ فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَمَا ظَهَرَ
فِي قَوْمِ الزَّانَا إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجُنُونَ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ الْقَتْلِ - يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا - إِلَّا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ عَدُوَّهُمْ، وَلَا ظَهَرَ فِي قَوْمِ عَمَلٍ قَوْمٌ لَوْطٍ إِلَّا ظَهَرَ
فِيهِمُ الْخَسْفُ، وَمَا تَرَكَ قَوْمٌ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا تَرَفَعَ
أَعْيُنُهُمْ وَلَمْ يَسْمَعْ دُعَاؤُهُمْ»^(١).

وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ إِسْرَاهِيمَ بْنِ الْأَشْعَثِ، عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ
زَيْدٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ سَعِيدٍ، بِهِ^(٢).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَغَيْرِهِ مِنْ حَدِيثِ عُروَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: دَخَلَ عَلَيَّ
رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ حَقَرَهُ النَّفْسُ، فَعَرَفْتُ فِي وَجْهِهِ أَنَّ قَدْ حَقَرَهُ
نَفْسِي، فَمَا تَكَلَّمَ حَتَّى تَوَضَّأَ، وَخَرَجَ، فَلَصِقْتُ بِالْحُجُبَةِ، فَصَمِدَ الْمَيْزَ، فَحَمِدَ اللَّهُ
وَأَتَيْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ لَكُمْ: مَرُوا بِالْمَعْرُوفِ
وَانْتَهُوا عَنِ الْمُنْكَرِ قَبْلَ أَنْ تَدْعُونِي فَلَا أُجِيبَكُمْ، وَتَسْتَضِرُّونِي فَلَا أَنْصُرَكُمْ،
وَتَسْأَلُونِي فَلَا أُعْطِيكُمْ»^(٣).

(١) لم أقت عليه في المطبوع من معاجم الطبراني الثلاثة.

وأخرج الطبراني في الكبير (١٠٩٩٢) من طريق عبد الله بن كيسان، عن الضحاك بن
مزاحم، عن مجاهد وطاوس، عن ابن عباس، فذكر نحوه.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٥).

(٣) أخرجه أحمد (١٥٩/٦)، وابن ماجه (٤٠٠٤).

كانوا أهل علم ودين وكتاب، كما سَلَطَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ المَجُوسَ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ
عَقُوبَةَ لَهُمْ.
وما هو مشاهد في هذا الزمان في كثير من البلدان من الجور والظلم،
وتشريد المسلمين، وتشريد الصالحين، وتولي الظلمة عليهم، إنما هو بسبب
الذنوب والمعاصي، سَلَطَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَقُوبَةَ لَهُمْ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ مِنْ حَدِيثِ قَبِيصِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ تَتَلَوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ، وَإِنَّكُمْ تَصْعَقُونَ بِهَا عَلَى غَيْرِ بَيِّنَةٍ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلِّ إِذَا اهْتَضَيْتُمْ [المائدة: ١٠٥]. وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ - وَفِي لَفْظٍ: إِذَا رَأَوْا الْمُنْكَرَ فَلَمْ يَنْبُذُوهُ - أَوْ شَكَّ أَنْ يَعْصِيَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْ عِنْدِهِ»^(١).

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: ظَهَرَ لَنَا أَنَّ قُبْرَ صَرِّتِ الْعَامَّةِ^(٢).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ثَوْبُكَ الْقُرَى أَنْ تُخْرَبَ وَهِيَ عَامِرَةٌ، قِيلَ: وَكَيْفَ تُخْرَبُ وَهِيَ عَامِرَةٌ؟ قَالَ: إِذَا عَلَا قُبْرُهَا أَتْرَاكُهَا، وَنَسَا الْقَبِيلَةَ مَنَاقِبُهَا^(٣).

وَذَكَرَ الْأَوْزَاعِيُّ عَنْ حَسَّانِ بْنِ عَطِيَّةٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «سَيُظْهِرُ سِرَّ أُمَّتِي عَلَى خِيَارِهَا، حَتَّى يَسْتَحْفِيَ الْمُؤْمِنُ فِيهِمْ كَمَا يَسْتَحْفِي الْكُفَّاءُ فِيْنَا الْيَوْمَ»^(٤).

(١) أخرجه أحمد (٧، ٢/١)، وأبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨)، وابن ماجه (٤٠٥).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٠)، والطبراني في الأوسط (٩٤/٥).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٤)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن (٧٩٩/٤).

(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٥)، وأبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن

وَقَالَ الْعَمَرِيُّ الرَّاهِدُ: إِنَّ مِنْ عَقَلَتِكَ عَنْ نَفْسِكَ وَإِعْرَاضِكَ عَنِ اللَّهِ أَنْ تَرَى مَا يُسْخِطُ اللَّهَ، فَتَجَاوِزَهُ، وَلَا تَأْتُرْ فِيهِ، وَلَا تَنْتَهِي عَنْهُ، خَوْفًا مِنْ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

وَقَالَ: مَنْ تَرَكَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ تَخَافَةً مِنَ الْمَخْلُوقِينَ، تَرُوحَ مِنْهُ الطَّاعَةُ، وَلَوْ أَمَرَ وَلَهُ أَوْ بَعْضَ مَوَالِيهِ لَا سَخَفَ بِحَقِّهِ^(١).

الشرح:

هذا يدل على أن كل جريمة لها عقوبة، وأن العقوبات إنما سببها الذنوب والمعاصي والكفر والفسق، وأن الناس إذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يُجِبَلْ دعائهم.

وكذلك من يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفاً من الناس تحل به العقوبة، وإنكار المنكر حسب الاستطاعة، وأقل شيء أن ينكره بقلبه، فيبغض المنكر وأهله، ويتبعد عنهم، وأعلى شيء أن يزيله بيده إن كان له سلطة، أو بلسانه إن لم يكن له سلطة ولكن عنده علم ومعرفة، فيعظ وينصح ويبين للناس. فإن كان بيده سلطة ويستطيع أن ينكره بيده، أو يستطيع أن ينكره بلسانه لأنه عنده معرفة وبيان، ولكنه ترك الإنكار خوفاً من الناس، فهذا تحل عليه العقوبة، أما إذا كان لا يقدر فيبغض الإنكار بالقلب، والإنكار بالقلب لا يقدر أحد أن يمنع منه أبداً؛ لأن الناس ما يدرون عن قلبه.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٣٨)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (١٤).

فَلَا تَخْشَى أَنْ لَا أُخْرِجَ مِنْ صُلْبِكَ صَليَةً أَبَدًا، مَا كَانَ عَقَبُكَ لِئَلَّا تُلْزَمَ
مَهْلًا يَا بَنِيَّ،^(١)

الشرح:

قد يترك بعض الناس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويستدل بقول
الله تَعَالَى وَيَتَأْتِيهِمُ الَّذِينَ عَاقَبُوا عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ لَا يَخْشَوْنَ
قَوْلَ إِذَا أَنتَدَبْتُمُوهُمْ، ويقولون: ما عليّ إلا من نفسي، ولا عليّ من الناس، وولن
يضرني ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إن أصلحت نفسي!

وهذا فهم الآية على غير معناها؛ لأن الله تَعَالَى لم يقل: لا تأمروا
بالمعروف وتنهوا عن المنكر، بل قال: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾، أي: أصلحوا
أنفسكم أولاً، ولا تنظروا إلى الناس، كأن يقول في المعاصي والذنوب: هذا
شيء عليه الناس، وأنا أفعل مثل ما يفعل الناس!

فكل واحد مأمور بأن يصلح نفسه ولا يغتر بما عليه الناس، لكن لا يترك
الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حسب استطاعته؛ لأن الله تَعَالَى قال:
﴿إِذَا أَهْمَكَ بُيُوتُكُمُ الْيَتَامَى وَالْمَسْكِينُ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾، ولا يكون مهتدياً إلا إذا كان يأمر بالمعروف وينهى عن
المنكر بحسب استطاعته.

فالآية ليس فيها ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما فيها أن
الإنسان لا يغتر بأفعال الناس، ولا يجارهم ويمشي معهم على ما هم عليه ما

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٥٢٤).

وَذَكَرَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ يَرْفَعُهُ قَالَ: «يَأْتِي زَمَانٌ يَذُورُ
فِيهِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ كَمَا يَذُورُ الْمَلِخُ فِي النَّارِ»، قِيلَ: مِمَّ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: وَمِمَّا
يَرَى مِنَ الشُّكْرِ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرُهُ^(١).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ
قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْعَاصِي، وَهُمْ أَغْرَ أَكْثَرُ مِنْ يَعْمَلُهُ، فَلَمْ يُغَيِّرُوهُ، إِلَّا عَقَبَهُمُ
اللَّهُ بِعِقَابٍ»^(٢).

وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ، عَنْ أَسَمَةَ بْنِ زَيْدٍ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ
ﷺ يَقُولُ: «لِحَاءُ الرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَسْتَلِيقُ أَفْئِدَتُهُ فِي
النَّارِ، يَذُورُ كَمَا يَذُورُ الْحِجَارُ بِرَحَاءٍ، فَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: أَيُّ فَلَانٍ
مَا فَسَدْنَا؟ أَلَسَتْ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنِ الشُّكْرِ؟ قَالَ: بَلَى، كُنْتُ
أَتُرَكُّمُ بِالْمَعْرُوفِ وَلَا آتِيهِ وَأَتُكِّمُ عَنِ الشُّكْرِ وَآتِيهِ»^(٣).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ: «كَانَ حَبْرٌ مِنْ أَجْبَارِ بَنِي
إِسْرَائِيلَ يَغْشَى مَنَازِلَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَيَعِظُهُمْ وَيَذَكِّرُهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ، فَرَأَى
بَعْضَ نِسَاءٍ يَوْمًا يَغْيِرُ النِّسَاءَ، فَقَالَ: مَهْلًا يَا بَنِيَّ، مَهْلًا يَا بَنِيَّ، فَسَقَطَ مِنْ سَرِيرِهِ،
فَانْقَطَعَ لِحْيَتُهُ، وَاسْقِطَ امْرَأَتُهُ، وَقِيلَ بَنُوهُ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّهِمْ: أَنْ أَخْبِرْ

(١) (٧٩٨/٤).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في العقوبات (٤٦)، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٢٥).

(٣) أخرجه أحمد (٣٦٤/٤)، وأبو داود (٤٣٣٩)، وابن ماجه (٤٠٠٩).

(٤) تقدم تخريجه (ص ١٠٠).

الناس وينهى الناس.

وقوله: (أَنِّي لَا أَخْرِجُ مِنْ صُلْبِكَ صَديقًا أَبَدًا)، ذلك لأنه تساهل في الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر؛ رأى ابنه على معصية فتساهل، وقال: (مَهْلًا يَا

بَنِيَّ)، ولم يأخذ على يده ويمنعه، وهو يستطيع أن يغير بيده - لأن له سلطة

النأديب على ولده - واقتصر على الكلام فقط.

الذنوب والمعاصي، بل عليه أن يلزم نفسه ويصلحها، وينكر ما ظهر من المعاصي قدر استطاعته، أما إذا كانت المعاصي خفية فإنها لا تنصر إلا أصحابها، فإذا جهر بها ولم تُنكر؛ عمت عقوبتها المعاصي والساکت عن الإنكار.

وقوله: (عَمَّا يَؤَيِّدُ مِنَ الْمُنْكَرِ لَا يَسْتَطِيعُ تَغْيِيرُهُ) إذا كان العبد يتحصر إذا

رأى المنكر وهو لا يستطيع أن يغيره، فهذا دليل على الإيثار، لكن إذا صار لا

يتحصر ولا يحرك فيه ساكنًا، فهذا دليل على الشقاء والعياذ بالله، ولذلك قال:

(يَذُوبُ فِيهِ قَلْبُ الْمُؤْمِنِ) أي: القلب الذي فيه إيثار.

أما الذي يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهذا قلبه ليس فيه

إيثار؛ لقول النبي ﷺ: (مَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيثَارِ حَبَّةُ خَرْدٍ) ^(١).

وقوله: (وَهُمْ أَغْرُوكُمْ مِنْ يَعْمَلُهُ)، يعني: لديهم القدرة على إنكار

المنكر، (فَلَمْ يَغْيُرُوهُ) أي: تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وهم

يقدرُونَ (لَا عَنْهُمْ اللَّهُ بِعَقَابٍ).

وقوله: (تَتَذَلَّلُ أَقْبَابُهُ فِي النَّارِ) يعني: أَمَاؤُهُ، وهذا وعيد للذي يأمر

الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهو لا يعمل بذلك في نفسه، فلا بد أن

يعمل بنفسه أولاً، فيترك المنكر ثم ينهى عنه، وينعل الخير ويأمر به، ولا يكون

كمن قال الله جلَّ وعلا فيهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٤]. بل يبدأ بنفسه قبل أن يأمر

(١) أخرجه مسلم (٥٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَفِي الْحَلِيَةِ أَيْضًا عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ: «يَا صَاحِبَ الذَّنْبِ، لَا تَأْمَنْ سُوءَ عَاقِبَتِهِ، وَكَأَنَّ بَيْعَ الذَّنْبِ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ إِذَا عَمِلْتَهُ قَلَّةَ حَيَاتِكَ مِنْ عَلَى الْيَمِينِ وَعَلَى الشَّأْلِ - وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ - أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَصَحَّحَكَ وَأَنْتَ لَا تَدْرِي مَا اللَّهُ صَانِعٌ بِكَ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَفَرَحَكَ بِالذَّنْبِ إِذَا ظَفِرْتَ بِهِ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَخُزْنَكَ عَلَى الذَّنْبِ إِذَا قَاتَكَ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَخَوْفَكَ مِنَ الرِّيحِ إِذَا حَرَّكَتَ سِرَّ بَابِكَ وَأَنْتَ عَلَى الذَّنْبِ وَلَا يَضْطَرُّ فُؤَادُكَ مِنْ نَظَرِ اللَّهِ إِلَيْكَ أَكْثَرُ مِنَ الذَّنْبِ. وَنَحْكَ! هَلْ تَدْرِي مَا كَانَ ذَنْبُ أَيُّوبَ فَأَنْبَلَاهُ بِالْبَلَاءِ فِي جَسَدِهِ وَذَهَابِ مَالِهِ؟ اسْتَغَاثَ بِهِ مُسْكِينٌ عَلَى ظِلِّ يَدْرُؤُهُ عَنْهُ، فَلَمْ يُعْنِهِ، وَلَمْ يَنْبُذْهُ الظَّالِمُ عَنْ ظُلْمِهِ، فَأَنْبَلَاهُ اللَّهُ»^(١).

الشرح:

هذه الأحاديث والآثار تدل على أنه لا يجوز التساهل في الذنوب، فإن الذنوب معصية وخالفه لأمر الله سبحانه وتعالى، وإذا اجتمعت على العبد - ولو كانت يسيرة وصغيرة - صارت كبيرة، فتهلكه وتجره إلى الكفر؛ لأنه إذا تساهل بالشيء اليسير تساهل بالشيء الكبير، وإذا عظم الشيء الصغير عظم الكبير. فعلى العبد ألا يتساهل بالذنوب والمعاصي مثل ما نسمع عن بعض الناس ممن يتساهلون في الذنوب ويستخفون بها، ويظنون أنها شيء يسير، وهي عند الله كبير: ﴿وَنَحْسِبُوهُ هَبًّا وَهْوًا عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [النور: ١٥]، فنبو

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٣٢٤).

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُخْتَرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَتَجَمَعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يَمْلِكْنَهُ». وَإِنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ضَرَبَ كَهْنًا مَثَلًا: «كَمَلِ الْقَوْمَ تَزَلُّوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَخَصَّرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَيَجْعَلُ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ حَتَّى يَجْعُوا سَوَادًا، وَأَجْبُوا نَارًا، وَأَنْصَحُوا مَا قَدَّمُوا فِيهَا»^(١). وَفِي صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: «لَكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَقْبَى فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ، وَإِنْ كُنَّا لَتَمْلِكُنَّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مِنْ الْمَوَاقَاتِ»^(٢).

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «عُذِّبَتْ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ سَجَنَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ، فَدَخَلَ النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا، وَلَا سَقَمَتْهَا، وَلَا تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَامِ الْأَرْضِ»^(٣).

وَفِي الْحَلِيَةِ لَا يَبِي نَعِيمٌ عَنْ حُدَيْقَةَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ: فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ تَرَكْتَ بَنُو إِسْرَائِيلَ دِينَهُمْ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَمُرُوا بِشَيْءٍ تَرَكُوهُ، وَإِذَا نَهُوا عَنْ شَيْءٍ رَكِبُوهُ، حَتَّى انْسَلَخُوا مِنْ دِينِهِمْ كَمَا يَنْسَلِخُ الرَّجُلُ مِنْ قَمِيصِهِ»^(٤).

وَمِنْ مَا هُنَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْمُعَاصِي بَرِيدُ الْكُفْرِ، كَمَا أَنَّ الْقُبْلَةَ بَرِيدُ الْجَمَاعِ، وَالْغَنَاءُ بَرِيدُ الرِّقَا، وَالنَّظَرُ بَرِيدُ الْعَيْشِ، وَالرُّغْصُ بَرِيدُ الْمَوْتِ.

(١) تقدم تخريجه (ص ١١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) تقدم تخريجه (ص ١٢٢).

(٤) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١/ ٢٧٩).

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا الْوَلِيدُ قَالَ: سَمِعْتُ الْأَوْزَاعِيَّ يَقُولُ: سَمِعْتُ بِلَالَ بْنَ سَعْدٍ يَقُولُ: «لَا تَنْظُرُ إِلَى صَغِيرِ الْحَقِيقَةِ، وَلَكِنْ انْظُرْ إِلَى مَنْ عَصَيْتَ»^(١). وَقَالَ الْفَضْلُ بْنُ عِيَّاضٍ: يَقْدِرُ مَا يَصْغُرُ الذَّنْبُ عِنْدَكَ يَعْظُمُ عِنْدَ اللَّهِ.

وَيَقْدِرُ مَا يَعْظُمُ عِنْدَكَ يَصْغُرُ عِنْدَ اللَّهِ^(٢).

وَقِيلَ: أَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَى مُوسَى، يَا مُوسَى إِنَّ أَوَّلَ مَنْ مَاتَ مِنْ خَلْقِي إِبْلِيسُ، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا أَحَدُ مَنْ عَصَانِي مِنَ الْأَمْوَاتِ^(٣).

وَفِي الْمُسْنَدِ وَجَامِعِ التِّرْمِذِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا لُكِبَتْ فِي قَلْبِهِ لُكْمَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِنْ تَابَ وَتَوَضَّعَ وَاسْتَغْفَرَ صُفِّلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى تَمْلَأَ قَلْبُهُ، فَذَلِكَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَأَى عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الطِّفِّينَ: ١٤]»^(٤). وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

وَقَالَ حُدَيْفَةُ: «إِذَا أَذْنَبَ الْعَبْدُ لُكِبَتْ فِي قَلْبِهِ لُكْمَةٌ سَوْدَاءٌ حَتَّى يَصِيرَ قَلْبُهُ كَالنَّسَاءِ الرَّيْدَاءِ»^(٥).

(١) أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائد على الزهد (٢٢٦٧)، وابن المبارك في الزهد (٧١)، والسنائي في الكبرى (٤٠٥/١٠)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٥٨/١).

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٦٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٥٠/٩).

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا في التوبة (٤٢) عن مسروق بن سليمان.

(٤) أخرجه أحمد (٢٩٧/٢)، والترمذي (٣٣٣٤)، وابن ماجه (٤٢٤٤)، والحاكم (٥٦٧/٢).

(٥) أخرجه أبو داود في الزهد (٢٧١)، وأبو بكر الخلال في السنة (٥٥/٥)، والبيهقي في شعب الإيمان (٣٧٤/٩).

إسرائيل إنما هلكوا بهذا السبب، كانوا يتساهلون في المخالفات والذنوب وما زالوا كذلك حتى وقعوا في الكفر؛ لأن المعاصي بريد الكفر، يعني: توصل إلى الكفر.

وتلك المرأة التي دخلت النار في هرة؛ كانت عندها شيئاً سهلاً، فحبستها حتى ماتت، لا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تطلب الرزق، فدخلت النار بذلك. وهذا في قتل هرة، فكيف بالذي يقتل نفساً مؤمنة؟! ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٣].

بينما المرأة البغي التي كانت تستعمل الزنا، لما رأت كلباً يلهث من شدة العطش، فسقته، فغفر الله لها.

فلا تساهل فيه المعاصي ومخدرات الذنوب، وكذلك الحسنة لا تستصغر، فالحسنة - ولو كانت بسيرة - يضاعفها الله جأً وجأً، كما قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا عَلَى أَحَدٍ خَسَنَةً يُحْصِيهَا﴾، يعني: ولو كان مثقال الذرة حسنة فإنه يضاعفها ﴿وَيُؤْتِي مَنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠].

وَقَالَ الْإِيمَانُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ صَلَاحٍ، عَنْ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ خُنَيْسٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَنَا بَعْدُ تَا مَعْفَرٍ فَرَضِي، فَإِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الْأَمْرِ مَا تَعْفُوا اللَّهَ، فَإِنَّا عَفِينَاكُمْ عَنْ عَفَاكُمْ مِنْ تَلَحُّكُمْ لِمَا نَلَسَ هَذَا الْقَضِيْبُ» - الْقَضِيْبُ فِي تِلْكَ نَحْمُ قَضِيْبَةً فَإِنَّا هُوَ أَتَيْتُكُمْ بِعَفَاكُمْ» (١).

وَذَكَرَ الْإِيمَانُ أَحْمَدُ: عَنْ وَهْبٍ أَنَّ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي بَعْضِ مَا يَقُولُ لَتَنِي إِبْرَاهِيمَ: «إِنِّي إِذَا أُلْفِيتُ رَحِيْبَتِي، وَإِنَّا رَحِيْبَتِي تَارَكْتُ، وَلَيْسَ لِي رَحِيْبَتِي بَعْدَكَ، وَإِنَّا فَصِيْبَتُ كَعَفَا، وَلَعَنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ» (٢).

الشرح:

قوله: (تَعَفَّى عَنْكُمْ مِنْ تَلَحُّكُمْ)، أي: يغلب عليكم ويملككم، فالإنسان لا يهتد، على نفسه وعلى شرفه، فإن الله يهلك الطغاة ولو كانوا من أشراف الناس، فهذه قرينة قرينة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهم أشراف قبائل العرب، إذا عصوا الله فإن الله تبارك وتعالى ينتقم منهم ولا يهتد منهم نسيتهم.

وهذا أبو لهب أنزل الله فيه قرآناً ينزل إلى يوم القيامة، وما نفقه أنه من قرش، ولا أنه عم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقوله: (وَلَعَنَتِي تَبْلُغُ السَّابِعَ مِنَ الْوَلَدِ)، هذا وعيد شديد، إن الله على كل شيء بصرى إذا أطيع، وبغضب إذا عصي، وإن المعنة تؤثر حتى على ذرية العاصي، وهذا من علوم المعاصي والعباد بالله.

(١) أخرجه أحمد (١/٤٥٨).

(٢) أخرجه أحمد في الزهد (١٨٩).

الشرح:

قوله: (تَلَحُّنٌ إِلَى مِنْ عَفَا)، هو الله تبارك وتعالى فلا تنظر إلى أن هذه صفة وعيد يسرى، بل نظر إلى أنها حالة له عكسها.

فلا يجب على المسلم أن يعظم لأمر الله ونواهي: «كَلَّا لَئِنْ قُومَ نَعْلَمُ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّهِ» (الصحيح: ٤٣٠)، «كَلَّا لَئِنْ قُومَ نَعْلَمُ خَيْرٌ مِنْ ذَلِكَ لَكُمْ عِنْدَ رَبِّهِ» (الصحيح: ٤٣٠)، فعل المسلم أن يعظم ويعظم لأمر الله ونواهي، ولا يساهل.

وقوله: (إِنَّ أَمْرًا مِنْ عَفَا مِنْ عَفَايَ الْإِيمَانِ)، يعني: الذي يعصي الله بموت قلبه وإن لم يموت جسده، وموت القلب أعظم من موت الجسد، قال الله عز وجل: «أَوْ مِنْ كَانَ مِثْلًا فَأَخْبَرْتَهُ» (الأعراف: ١٧٣)، كان ميثاً بالكفر، فأخبره الله تبارك وتعالى بالإيمان، بمعنى الإيمان حياً، وبمعنى الكفر موتاً، فبالعمل على أن الموت كما يكون بمغارقة الروح للجسد، يكون بموت القلب، وهو الأصل.

وقوله: (تَكُنْ فِي قَلْبِهِ تَلَحُّنٌ مَوْفَقًا)، لأن الذنوب تؤثر في القلب حتى يعرض لهم يؤثر فيه حتى يرداه مرفساً وموت، فإلى فيه تكنت فيه تكلة فهو عرض وموت، ثم تعظم هذه التكلة حتى تغطي على القلب، وهذا هو الرأى الذي قاله الله عز وجل: «كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

وقوله: (تَلَحُّنٌ إِلَى الْإِيمَانِ) يعني: السواد.

وَذَكَرَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّهُ لَمَّا رَكِبَ الدَّيْنُ اغْتَمَّ لِذَلِكَ، فَقَالَ: «إِنِّي لَا عُرْفَ هَذَا النِّعَمِ يَذَلُّ بِأَصْبَتِهِ مِنْهُ أَرْبَعِينَ سَنَةً»^(١).

وَمَا هُنَا نَكْتَةُ دَقِيقَةٍ يَغْلُظُ فِيهَا النَّاسُ فِي أَمْرِ الذَّنْبِ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يَتَوَرَّونَ تَأْيِيدَهُ فِي الْحَالِ، وَقَدْ يَتَأَخَّرُونَ تَأْيِيدَهُ فَيَنْتَسِي، وَيَطْنُ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُعْتَبَرُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ كَمَا قَالَ الْقَائِلُ:

إِذَا لَمْ يَتَغَبَّرْ حَاطِطٌ فِي وَقُوعِهِ فَلَيْسَ لَهُ بَعْدَ الْوُقُوعِ عُسَارٌ
وَسُبْحَانَ اللَّهِ مَاذَا أَهْلَكْتَ هَذِهِ النُّكْتَةَ مِنَ الْخَلْقِ؟ وَكَمْ أَزَالَتْ مِنْ نِعْمَةٍ؟
وَكَمْ جَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةٍ؟

وَمَا أَكْثَرَ الْمُتَغَبِّرِينَ بِهَا الْعُلَمَاءُ وَالْفُضَلَاءُ، فَضَلَّ عَنْ الْجَهَّالِ! وَلَمْ يَعْلَمْ الْمُتَغَبِّرُ أَنَّ الذَّنْبَ يَقْتَضِ وَلَوْ بَعْدَ حِينَ، كَمَا يَقْتَضِ السُّمُّ، وَكَمَا يَقْتَضِ الْجُرْحُ التَّنَدُّلَ عَلَى الْفَيْسِ وَالِدَّغْلِ.

وَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ: «اعْبُدُوا اللَّهَ كَأَنَّكُمْ تَرَوْنَهُ، وَعُدُّوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ الْمَوْتِ، وَعَلِّمُوا أَنَّ قَلِيلًا يُغْنِيكُمْ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُلْهِيْكُمْ، وَعَلِّمُوا أَنَّ الْبِرَّ لَا يَبْلَى، وَأَنَّ الْإِثْمَ لَا يُنْسَى»^(٢).
وَنَظَرَ بَعْضُ الْعُبَادِ إِلَى صَبِيٍّ، فَتَأَمَّلَ تَحَاسُّنَهُ، فَأَتَى فِي مَنَامِهِ، وَقِيلَ لَهُ: لَتَجِدَنَّ غَيْبَهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً^(٣).

(١) لم أنف عليه في المطبوع من الزهد للإمام أحمد، وأخرجه أبو نعيم في الحلية (٢/٢٧١).
(٢) أخرجه أحمد في الزهد (٧١٦).
(٣) أخرجه ابن عساکر في تاريخ دمشق (٨٤/٦) عن أبي عبد الله بن الجلاء، وأنه بسببها نسي

وَذَكَرَ أَيْضًا عَنْ وَكَيْعٍ، حَدَّثَنَا زَكْرِيَّا، عَنْ عَامِرٍ قَالَ: كَتَبْتُ عَائِشَةَ إِلَى مُنَادِيَةٍ: «أَكْمَا بَعْدُ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا عَمِلَ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ عَدَّ حَامِلَهُ مِنَ النَّاسِ دَائِمًا»^(١).

وَذَكَرَ أَبُو نُعَيْمٍ عَنْ سَالِمِ بْنِ أَبِي الْجَعْدِ، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: «لَيُخَدَّرَ امْرُؤٌ أَنَّ تِلْكَ تِلْكَ الْغُيُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ، ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مِمَّ هَذَا؟» قُلْتُ: لَا، قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ يَخْلُو بِمَعَاصِي اللَّهِ وَيَلْقِي اللَّهَ مُنْعِضُهُ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ»^(٢).

الشرح:

كذلك من أضرار المعاصي أن الله يلقي على أهلها البغضاء في قلوب الناس فيبغضونه؛ لأن الناس - كما هو معروف وظاهر - يحبون أهل الطاعة «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا» [أمرم: ٩٦]؛ لأن الله يحبهم في السماء ويحبهم الملائكة، ثم ينزل لهم القبول في الأرض، وإن لم يكن عندهم مال ولا يعطون الناس شيئًا، لكن يحبونهم من أجل الطاعة، بخلاف العاصي، فإن الله يلقي بغضه في قلوب الناس فيبغضونه ويصبح ذليلًا، ولذلك تجد العصاة ذليلين حتى وإن كانوا كبارًا في مناصبهم أو نسبهم، يجعل الله ذل المعصية على وجوههم.

(١) أخرجه أحمد في الزهد (٩١٥).
(٢) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٢١٥/١). كما أخرجه أحمد في الزهد (٧٦٠) مختصرًا.

العبد الذنب فإن الله لا ينساه.

قوله: (فَلَيْسَ كَهَذَا الْوُقُوعِ غَبَارٌ)، فالغبار إنما يكون وقت السقوط، أما

إذا سقط بروح الغبار.

وقوله: (لَتَجِدَنَّ فِيهَا بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً)، وهذا في نظرة واحدة إلى ما حرم

الله، فكيف بمن يطيل النظر إلى الحرامات؟!.

وقوله: (مُؤْتَمِّتٌ بِنَفْسِهِ كُلِّ عَدُوٍّ) فرق بين مُتَمِّتٌ وِئْتَمَّتْ، يُتَمِّتُ

يعني: يشمت العاطس ويقول له: يرحمك الله، وأما يُتَمِّتُ فمعناها: أنه يشنع

عليه.



هَذَا مَعَ أَنَّ لِلذَّنْبِ نَقْدًا مُعْجَلًا لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ، قَالَ سَلِيمَانُ التِّيمِي: «إِنَّ

الرَّجُلَ لَيُصِيبُ الذَّنْبَ فِي السَّرِّ فَيُصْبِحُ وَعَلَيْهِ مَذَلَّتُهُ»^(١).

وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مُعَاذٍ الرَّازِي: «عَجِبْتُ مِنْ ذِي عَقْلٍ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ: اللَّهُمَّ

لَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ، ثُمَّ هُوَ يُشْمِتُ بِنَفْسِهِ كُلَّ عَدُوٍّ لَهُ»، قِيلَ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟

قَالَ: «يُعْصِي اللَّهُ فَيُشْمِتُ بِهِ فِي الْقِيَامَةِ كُلَّ عَدُوٍّ»^(٢).

الشرح:

قوله: (وَيُظَلُّ الْعَبْدُ أَنَّهُ لَا يُعْبَرُ بَعْدَ ذَلِكَ)؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا قد يمهّل

العاصي، فيظن العاصي أنه قد غفر له، وأن الله لن يعاجله بالعقوبة، وهذا من

مكر الله به، من أجل أن يزداد من الذنوب. وبعض الناس إذا ما نزلت به

العقوبة سريعة يتساهل في الذنب ويقول: لو كان شيئاً مهماً لصار له عقوبة،

فإنه جَلَّ وَعَلَا يمهّل العاصي، ثم يأخذه على غرة.

فلا يتساهل الإنسان بالذنب، ويستبطع العقوبة، فإن العقوبة قد تتأخر.

وتصير أعظم مما لو عجلت، قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا

فَيَبْشِرُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾

[المجادلة: ٣٠]، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى يحصي عليهم أعمالهم، ولكنهم نسوها، فإذا نسي

القرآن.

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا العقوبات (٦٧)، وفي التوبة (١٩٥).

(٢) لم أتف عليه مستنداً.

وعلى الأبدان: بالأمراض والاستقام والأفات، وعلى الأوطان: في شمع المياه، وانجاس الأمطار، وإصابة الشار بالأفات، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قوله: (قِيمَتُهُ: جِزْمَانُ الْعِلْمِ)، بسبب المعاصي يحرم صاحبها من العلم النافع؛ لأن العلم نور، وهذا النور إنما يحصل لأهل الإيمان وأهل الطاعة، فلا يحصل لأهل المعاصي، وإن تعلموا بالسنتهم فإنهم يحرمون من العلم في القلوب؛ لأن العلم قسمان: قسم على الألسنة، وهذا يكون مع المنافقين وأهل الضلال، بل ويكون مع الكفار أيضاً. وعلم بالقلوب، وهذا لا يُعطاه إلا لأهل الإيمان، وأهل اليقين، وأهل الخشية، الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. هذا هو العلم النافع.

ومن ذلك هذه الآيات المذكورة عن الإمام الشافعي رحمه الله، قال: (شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي) وكيع هو شيخ من مشايخ الإمام الشافعي. وقد كان رحمه الله يجلس يتلقى العلم على الإمام مالك رحمه الله، ويروي عنه الموطأ، فكان يحفظ ما يسمع بسر عة، وكان شاباً صغيراً، فتعجب منه شيخه الإمام مالك، فأوصاه بهذه الوصية، وقال له: (إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ آتَى عَلَى نَبْلِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْغَضَبِ).

فَصْلٌ

وَالْمَعَاصِي مِنَ الْأَفْئَارِ الْقَيْصَةِ الْمَذْمُومَةِ وَالْمُضَرَّةِ بِالْقَلْبِ وَالتَّكْدِيرِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مَا لَا يَنْفَعُهُ إِلَّا اللَّهُ.

قِيمَتُهُ: جِزْمَانُ الْعِلْمِ، فَإِنَّ الْعِلْمَ نُورٌ يَقْذِفُهُ اللَّهُ فِي الْقَلْبِ، وَالْغَضَبُ يُطْفِئُ ذَلِكَ النُّورَ.

وَكَيْفَ جَلَسَ الْإِمَامُ الشَّافِعِيُّ بَيْنَ يَدَيْ مَالِكٍ وَقَرَأَ عَلَيْهِ أَحْجَبَهُ مَا رَأَى مِنْ وَفُورٍ فَطَنِيَّةٍ، وَتَوَقَّدَ دُكَائِهِ، وَكَتَالَ فَهْمِهِ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى اللَّهَ قَدْ آتَى عَلَى قَلْبِكَ نُورًا، فَلَا تُطْفِئُهُ بِظُلْمَةِ الْغَضَبِ^(١).

وَقَالَ الشَّافِعِيُّ^(٢):

شَكَوْتُ إِلَى وَكَيْعٍ سُوءَ حِفْظِي
وَفَضَّلَ اللَّهُ لَا يُؤْتَاهُ عَاصِرٍ

الشرح:

لَمَّا ذَكَرَ الشَّيْخُ رَحِمَهُ اللَّهُ آثارَ المعاصي الكثيرة، وتحذير السلف منها؛ أجهلها في هذه الكلمة، فقال: (وَالْمَعَاصِي) يعني: لها غير ذلك (مِنَ الْأَفْئَارِ الْقَيْصَةِ الْمَذْمُومَةِ)، فأثارها كثيرة على القلوب: فهي تقسي القلوب وتعميها وتورثها،

(١) ذكره النووي في تهذيب الأسماء (٢٩٩/١)، ولم أقف عليه مستنداً.

وذكر ابن عساکر في تاريخ دمشق (٢٨٦/٥١) أنه قال له: «يا محمد، اتق الله واجتنب المعاصي، فإنه سيكون لك شأن من الشأن».

(٢) ينظر: ديوانه (ص ٨٧).

وَلَدِهِ وَأَقَارِبِهِ، وَبَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ، فَتَرَاهُ مُسْتَوْجِبًا مِنْ نَفْسِهِ.

وَقَالَ بَغُضِّ السَّلَفِ: «إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَى ذَلِكَ فِي خَلْقِي دَائِمِي

وَأَمْرَانِي»^(١).

الشرح:

ومن آثار المعاصي أن يُحرم العاصي الرزق، كما في الحديث: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمَ الرِّزْقَ بِالذَّنْبِ يُصِيبُهُ»، وهذا في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِيسَ كَذِبُوا﴾ فَأَخَذْتَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿[الأعراف: ٩٦]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْمَلُوا مِن فَضْلِهِمْ وَمِنْ حَتَّى آرْجِلِهِمْ﴾ [الزائدة: ٦٦].

وقوله: (تَقْوَى اللَّهِ مَجْلِبَةً لِلرِّزْقِ) كما في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، فتقوى الله سبب للخروج من الشدائد، وسبب لجلب الرزق، والمعصية بالعكس.

وقوله: (فَتَرُكُ التَّقْوَى مَجْلِبَةً لِلْفَقْرِ)، فإن قيل: أنتم تقولون هذا، فما بال الكفار بأيديهم أموال وقوة وهم كفار؟! فنقول لهم: الكفار يسترجون، وهذا استدراج من الله سُبحَانَهُ وَتَعَالَى لَهُمْ، وأما ما يُعطاه أهل الإيمان فإنما هو إعانة لهم على طاعة الله، وجزاء لهم على تقواهم وإحسانهم، ففرق بين

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٩/٨) من كلام الفضيل بن عياض، ولفظه: «أُعرف ذلك في خلق حماري وخادمي».

وَمِنْهَا: جِرْمَانُ الرِّزْقِ. وَفِي الْمُسْنَدِ: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقُ بِالذَّنْبِ

يُصِيبُهُ»^(١)، وَقَدْ تَقَدَّمَ.

وَكَمَا أَنَّ تَقْوَى اللَّهِ مَجْلِبَةٌ لِلرِّزْقِ، فَتَرُكُ التَّقْوَى مَجْلِبَةٌ لِلْفَقْرِ، فَمَا اسْتَجِبَلَبَ

رِزْقُ اللَّهِ يَبْغِلُ تَرُكُ الْمَعَاصِي.

وَمِنْهَا: وَخْشَةٌ مَجْلِبَةً تَأْخِي فِي قَلْبِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ، لَا تُؤَادِيهَا وَلَا تُقَارِبُهَا اللَّهُ أَضْلًا، وَلَوْ اجْتَمَعَتْ لَهُ لَذَاتُ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا لَمْ تَقْبِ بِتِلْكَ الْوَخْشَةِ، وَهَذَا أَمْرٌ لَا يَحْسُ بِهِ إِلَّا مَنْ فِي قَلْبِهِ حَيَاةٌ، وَمَا يُخْرِجُ بِصِيَّتِهَا إِلَى أَمَلٍ.

فَلَوْ لَمْ تَتْرُكِ الذُّنُوبَ إِلَّا حَذَرًا مِنْ وَفُوعِ تِلْكَ الْوَخْشَةِ، لَكَانَ الْعَاقِلُ حَرِيًّا بِتَرُكِهَا.

وَمَتَكَارَ جُلُ إِلَى بَعْضِ الْعَارِفِينَ وَخْشَةً مَجْلِبَةً فِي نَفْسِهِ، فَقَالَ لَهُ^(٢):

إِذَا كُنْتُ قَدْ أَوْخَشَنْتَكَ الذُّنُوبَ فَدَعَهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنَسَ وَلَيْسَ عَلَى الْقَلْبِ أَمْرٌ مِنْ وَخْشَةِ الذَّنْبِ عَلَى الذَّنْبِ، فَإِنَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

وَمِنْهَا: الْوَخْشَةُ الَّتِي تَحْصُلُ لَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، وَلَا سِيَّاهُ أَهْلُ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، فَإِنَّهُ يُجِدُ وَخْشَةً بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ، وَكُلُّهَا قَوِيَّتُ تِلْكَ الْوَخْشَةِ بَعْدَ مِنْهُمْ وَمِنْ مَجَالَسَتِهِمْ، وَحُرْمَ بَرَكَةِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِمْ، وَقُرْبَ مِنْ جِزْبِ الشَّيْطَانِ بِقَدْرِ مَا بَعْدَ مِنْ جِزْبِ الرَّحْمَنِ، وَتَقْوَى هَذِهِ الْوَخْشَةُ حَتَّى تَسْتَحْكِمَ، فَتَقَعُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَمْرَاتِهِ

(١) تقدم تخرجه (ص ٢٩).

(٢) يُشَبِّهُ قَوْلَ سَمْنُونِ بْنِ حَمْرَةَ:

أَمْسَتْ جُشٌّ أَنْتَ مَتَّى جَيَّيْتُ فَأَخْسِنَ إِذَا شِئْتَ وَأَسْتَأْنَسَ

ذكره ابن الجوزي في صفة الصفوة (٢/٤٢٨).

الجيد، وإما أن يرافق أهل الشر لابد، (وَتَقْوَىٰ هَذِهِ الْوَحْشَةُ حَتَّىٰ تَسْتَحْكِمَ) حتى إنه يستوحش من زوجته ومن أقاربه بسبب المعصية.

ولهذا يقول بعضهم: (إِنِّي لَأَعْصِي اللَّهَ فَأَرَىٰ ذَلِكُ فِي خُلُقِي وَأَيْتِي، وَأَمَّا أَقْرَبِي، تَتَفَرَّقُ مِنْهُ دَابَّتُهُ، وَتَتَفَرَّقُ مِنْهُ زَوْجَتُهُ؛ لِأَنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَلَا يَقُولُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ اللَّهُ الرَّحْمَنَ وَدًّا﴾ [مريم: ٩٦]، أي: يجعل لهم محبة في قلوب الناس، بخلاف العاصي فإن الناس -ولو كانوا يتظاهرون بصدافته- يعضونه في قلوبهم، ويتفرون منه في قلوبهم.

العطائين: عطاء أهل الإيمان، وعطاء أهل الكفر.

كذلك العاصي يجد وحشة في قلبه بينه وبين الله، ووحشة بينه وبين الناس، وتكون عليه ذلة واضحة، فلا يستطيع أن يداوم على مجالسة أهل العلم، ولا يستطيع إنه يمشي معهم، وأشدُّ من ذلك أنه لما استوحش قلبه من الله استوحش من الناس.

ولذلك يقول الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْعَصَاةِ: «إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقَّ قَلْبُهُمْ الْبَغَالُ، وَهَمَلَتْ بِهِمُ الْبَرَائِيزُ، فَإِنَّ ذَلِكَ الْمُعْصِيَةَ لَا يُقَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَيْ: اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مِنْ عَصَاةٍ»^(١)، فهم في الظاهر في عز وفي نعيم، ولكن في قلوبهم ذلة ووحشة، لا يستأنسون بها أعطوا، ولا يتلذذون بما رزقوا.

قوله: (وَمَا يَخْرُجُ بِمَيِّتٍ إِلَّا مُمْ)، يقول الشاعر^(٢):

مَنْ يَمُوتُ يَسْهَلُ الْهَوَانُ عَلَيْهِ وَمَا يَخْرُجُ بِمَيِّتٍ إِلَّا مُمْ

لو يضرب الميت لا يحس ولا يدري، فكذلك العاصي لا يتأثر بالمواعظ، ولا يتأثر بالذكر؛ لأنه ميت القلب.

قوله: (وَكُلُّهَا قَوِيَتْ تِلْكَ الْوَحْشَةُ بَعْدَ مَرْتَبَتِهِمْ وَمِنْ مَجَالَسَتِهِمْ)، فلا يحب

الجلوس معهم ولا يحب سماع كلامهم، ولا يحب مصاحبتهم، وإنما يصحب أمثاله من العصاة، ويأنس بهم؛ لأنه -كما قيل -: الطيور على أشباهها تقع.

وقوله: (وَقَرَّبَ مِنْ جَزْبِ الشَّيْطَانِ يَقْدِرُ مَا بَعْدَ مِنْ جَزْبِ الرَّحْمَنِ)؛ لأنه

لا يستطيع أن يعيش وحده، لا بد له من جلساء ومرافقين، فإما أن يرافق أهل

(١) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء (١٤٩/٢) بنحوه، وسيأتي في كلام المصنف.

(٢) البيت لأبي الطيب المشبي، يُنظر: ديوانه (ص ١٦٤).

بَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. ومفهوم الآية: أن من لا يتق الله لا يجعل له مخرجًا من الندائات والعسر والكربات.

من قوله: ﴿فَمَنْ عَظَلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهُ عُسْرًا﴾، والأشد من ذلك أنه ما يبدري ما سبب تعسر الأمور عليه، وقد يلقي باللوم على غيره ويقول: هو الذي تسبب لي في ذلك العسر، ولا يفكر أن الله عَزَّوَجَلَّ هو الذي عسر أموره بسبب سلوكه ومعاصيه.

وقوله: ﴿قَصِيرُ ظِلْمَةِ الْمَعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظِلْمَةِ الْحَسِيَةِ لِبَصَرِهِ﴾، بخلاف أهل التقوى فإنهم يجدون في قلوبهم نورًا: ﴿يَنَالُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ ۖ وَأَعْبَادُ يَرْسُولِهِ يُوَفِّقُكُمْ كَفَلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨]. فتجد صاحب الطاعة على وجهه النور، والأنس في قلبه، والانشراح في صدره من آثار الطاعة، أما المعاصي فإنه يجد ظلمة في قلبه، وظلمة في تصرفاته، وهذه الظلمة تظهر حتى على لون جسمه، فتجد وجهه أسود مكتهر مقطب.

ومنها: تفسيرُ أمرِهِ عَلَيْهِ، فَلَا يَتَوَجَّهْ لِأَمْرِ إِلَّا بِحُجَّةٍ مُغْلَقًا دُونَهُ أَوْ مُتَّعِمًا عَلَيْهِ. وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنْ اتَّقَى اللَّهَ جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهُ يُسْرًا، فَمَنْ عَظَلَ التَّقْوَى جَعَلَ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ عُسْرًا.

وَيَا اللَّهَ الْعَجَبُ! كَيْفَ يَجِدُ الْعَبْدُ أَبْوَابَ الْخَيْرِ وَالْمَصَالِحِ مُسْتَدَوْدَةً عَنْهُ وَطُرُقَهَا مَعْسَرَةً عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ مِنْ أَيْنَ آتِي؟

وَمِنْهَا: ظِلْمَةُ يَجِدُهَا فِي قَلْبِهِ حَقِيقَةً، يَحْسُ بِهَا كَمَا يَحْسُ بِظِلْمَةِ الدَّلِيلِ الْبَهِيمِ إِذَا ادَّخَمَهُ، فَتَصِيرُ ظِلْمَةُ الْمَعْصِيَةِ لِقَلْبِهِ كَالظِلْمَةِ الْحَسِيَةِ لِبَصَرِهِ، فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ، وَالْمَعْصِيَةَ ظِلْمَةٌ، وَكُلًّا قَوِيَّتِ الظِّلْمَةُ إِذَا دَاخَلَتْ خَيْرُهُ، حَتَّى يَقَعَ فِي الْبَدَنِ وَالضَّلَالَاتِ وَالْأُمُورِ الْمُهْلِكَةِ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ، كَأَعْمَى أُخْرِجَ فِي ظِلْمَةِ الدَّلِيلِ يَنْبَغِي وَخَدَهُ، وَتَقْوَى هَذِهِ الظِّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ فِي الْعَيْنِ، ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَغْلُو الْوَجْهَ وَتَصِيرُ سَوَادًا فِيهِ حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: «إِنَّ لِلْحَسَنَةِ ضِيَاءً فِي الْوَجْهِ، وَنُورًا فِي الْقَلْبِ، وَسَمَةً فِي الرِّزْقِ، وَقُوَّةً فِي الْبَدَنِ، وَحُبَّةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ، وَإِنَّ لِلْسَيِّئَةِ سَوَادًا فِي الْوَجْهِ، وَظِلْمَةً فِي الْقَبْرِ وَالْقَلْبِ، وَهَنًا فِي الْبَدَنِ، وَنَقْصًا فِي الرِّزْقِ، وَبُغْضَةً فِي قُلُوبِ الْخَلْقِ»^(١).

الشرح:

قوله: (وهذا كما أن من اتقى الله جعل له من أمره يسرا)، كما في قوله الله

(١) لم ألق عليه مستنداً، وقد أخرج نحوه ابن أبي الدنيا في التوبة (١٩٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٨٧/٧)، والبيهقي في شعب الإيمان (٤٤٦/٥) عن الحسن البصري.

لن يسأل عن الدواء الشافي
قوة الروم والفرس، لكن ما نفعتمهم قوتهم.

٢١٧

ومن عقوبات المعاصي أن الإنسان يحرم الطاعة، فتجد العصاة أقل شيء عليهم الصلاة، بل هي عندهم أثقل من الجبال، في حين أنها خفيفة على أهل الإيمان، ويجدون لها لذة وحلاوة، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا لِأَفْسَادِهِمْ وَأَنْتُمْ كَاثِرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٨]. أما الذي ليس في قلبه خشوع فهذا تصعب الصلاة، ويتكاسل عنها، ولا يقوم لها، وتكون ثقلة عليه.

وكم قال تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الطافين: ١٤]، تصبح الطاعة ثقلة عليه، وبغضة إليه، وينفر عنها غاية النفر، مثل المريض لا يستطيع أن يأكل أو يشرب، مع أن الطعام والشراب الذي في فمه، لكنه يكون مرًا في ذوقه لأنه مريض، كذلك العاصي تكون الطاعة عليه شاقة.

فالإنسان - إن كان له عقل - بين أمرين: إما أن يكون مطيعًا، وإما أن يكون عاصيًا، أما المجنون فليس له طاعة ولا معصية.

تعليلات على الجواب الكافي

٢١٦

ومنها: أن المعاصي توهن القلب والبدن. أما وهن القلب فامر ظاهر، بل لا تزال توهنه حتى تُربل حياته بالكليّة. وأما وهن البدن فإن المؤمن قوته من قلبه، وكلما قوي قلبه قوي بدنه، وأما التآخر فإنه - وإن كان قوي البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة، فتعجزه قوته عند أخراج ما يكون إلى نفسه، وتأكل قوة أبدان فارس والروم، كيف خائنهم أخرج ما كانوا إليها، وقهرهم أهل الإطيان بقوة أبنائهم وقلوبهم؟

ومنها: حرمان الطاعة. فلو لم يكن للذنوب عقوبة إلا أن يصد عن طاعة تكون بذلك، وتقطع طريق طاعة أخرى، فتقطع عليه بالذنوب طريق ثالثة، ثم رابعة، وهكذا، فيقطع عليه بالذنوب طاعات كثيرة، كل واحدة منها خير له من الدنيا وما عليها. وهذا كرجل أكل أكلة أو جبت له مِرْصَة طويلة منقعة من عدة أكالات أطيب منها، والله المستعان.

الشرح:

من آثار المعاصي على العصاة أنها تضعف القلب والبدن، فتجد أهل الطاعات عندهم قوة في أبدانهم، وقوة في قلوبهم وعزائمهم.

وقوله: (وأما التآخر فإنه - وإن كان قوي البدن - فهو أضعف شيء عند الحاجة)، القوة الإيمانية هي التي تنفع، أما قوة البدن فهذه قوة حيوانية لا قيمة لها، فم كان هناك أقوى من أبدان فارس والروم، ومع هذا كانوا أضعف في الحروب وعند اللقاء، بينما أهل الإيمان أقوى الناس عند اللقاء وعند القتال، ولذلك تغلب المسلمون على فارس والروم مع ضعف أبدان المسلمين وقتل

وتعسر عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأشغالها، وذلك نقصان
الغنى، وتعسر عليه أسباب الخير بحسب اشتغاله بأشغالها، وذلك نقصان

خفيف من عمره،
ويسر المسألة أن عمر الإنسان مدة حياته، ولا حياة له إلا بإقباله على ربه،
والشعير بحسبه وذكره، وإظهار مزاياه.

الشرح:

ومن آثار المعاصي أنها (تقصّر العمر وتمحش بركته) إما قصرًا حسيًا، وإما
نصرًا معنويًا، فلا يجد العاصي في عمره بركة، فيكون طوله وقصره سواء.

وقوله: (تقصّر عمر العاصي هو دهاب بركة عمره ومخفها عليه) هذا
واضح أن العمر الذي يستعمل في الطاعة - ولو كان قصيرًا - فيه البركة وفيه
خير، وأما العمر الذي يستعمل في المعاصي فلا خير فيه ولو كان طويلًا، ولو
عمر صاحبه مئة سنة، قال جل وتعالى: ﴿يُودُّ أَحَدُهُمْ أَنْ يُعَمَّرَ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ
بِخَيْرٍ مِنْ أَلْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ﴾ [البقرة: ٩٦]، فطول العمر أو قصره لا ينفع
ولا يضر إلا ائتمن بالطاعة أو المعصية.

وفرق بين من يسهر الليل على الطاعة؛ من صلاة وتلاوة القرآن
واستغفاره ومن يسهر الليل على هوا ولعب ومشاهدة الفضائيات والانتزات،
فهذا يكون منهك البدن، ميت القلب كسلان، وينام عن صلاة الفجر التي هي
فرض، وذلك يقوم إلى عبادته نشيطًا، منشراح الصدر، مسرورًا، ويسهل عليه
القيام لصلاة الفجر، وتسهل عليه الطاعة، ففرق بين هذا وهذا، هذا يستعمل
عمره في الخير، وهذا يستعمل عمره في الشر.

ويستلزم أن المعاصي تقصّر العمر وتمحش بركته ولا بد، فإن البر كما يريد في
العمر، فالعمر يقصّر العمر.

وقد اختلف الناس في هذا الموضع، فقالت طائفة: نقصان عمر العاصي هو
دهاب بركة عمره ومخفها عليه، ولما حق، وهو بغض تأثير المعاصي.

وقالت طائفة: بل تنقص حقيقة، كما تنقص الرزق، فعمل الله سبحانه
للبركة في الرزق أسبابًا كثيرة كثيرة، وللبركة في العمر أسبابًا كثيرة كثيرة، وتزيد.

قالوا: ولا يمنع زيادة العمر بأسباب كما ينقص بأسباب، فالأزواج والأجبال،
والسعادة والشقاء، والصحة والمرض، والنعى والفقر، وإن كانت بقضاء الرزق
عزيمًا، فهو يقضي ما يشاء بأسباب جعلها موجبة لسيئاتها منقصية لها.

وقالت طائفة أخرى: تأثير المعاصي في محض العمر إنما هو بأن حقيقة الحياة
هي حياة القلب، ولهذا جعل الله سبحانه الكافر ميتًا غير حي، كما قال تعالى،

﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ [النحل: ٢١].

فالخلة في الحقيقة حياة القلب، وعمر الإنسان مدة حياته، فليس عمره إلا
أوقات حياته بالله، فذلك ساعات عمره، فالبر والتقوى والطاعة تزيد في هذه
الأوقات التي هي حقيقة عمره، ولا عمر له سواها.

وبالجملة، فالعبد إذا أعرض عن الله واشتغل بالمعاصي ضاعت عليه أيام
حياته الحقيقية، التي يجد غيب إضاعتها يوم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قَدْ مَاتَ لِحَيَاتِي﴾
[النجر: ٢٤]. فلا يخلو إما أن يكون له مع ذلك تطلع إلى مصالحه الدنيوية
والأخروية أو لا، فإن لم يكن له تطلع إلى ذلك فقد ضاع عليه عمره كله،
ودعيت حياته باطلا، وإن كان له تطلع إلى ذلك طالت عليه الطريق بسبب

وَقَالَ الْآخَرُ (١):

كَكَانَتْ دَوَائِي وَهِيَ دَائِي بِعَيْنِهِ كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الْخَمْرِ بِالْخَمْرِ وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ يُعَانِي الطَّاعَةَ وَيَأْلُفُهَا وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَقَالَ بِرَحْمَةِ عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ نُورُهُ إِلَهِهَا أَزَاءً، وَخُرُصُهُ عَلَيْهَا، وَتَرْعِيَّتُهُ عَنْ قَوَائِمِهِ وَتَجَلُّسِهِ إِلَيْهَا. وَلَا يَزَالُ يَأْلَفُ الْمَعَاصِي وَيُحِبُّهَا وَيُؤْثِرُهَا، حَتَّى يُرْسِلَ اللَّهُ إِلَيْهِ السَّيَاطِينَ، فَتُؤْثِرُهُ إِلَيْهَا أَزَاءً. فَأَلَا أَوَّلُ قَوِي جُنْدِ الطَّاعَةِ بِالْمَدَدِ، فَصَارُوا مِنْ أَجْمَرِ أَغْوَايِهِ، وَهَذَا قَوِي جُنْدِ الْمَعْصِيَةِ بِالْمَدَدِ فَكَانُوا أَعْوَاثًا عَلَيْهِ.

الشرح:

من آفات الذنوب أنها تجر إلى مثلها، فالمعصية تجر إلى معصية، كذلك فإن الطاعة تقرب إلى طاعة أخرى. فالعبد المحسن إذا ترك الطاعة ضاقت عليه الدنيا، وما تلذذ إلا بالطاعات، ولو منع منها فإنه يتحسر على فقدانها؛ لأن الطاعة تجر إلى الطاعة، بينما العاصي لا يرتاح إلا مع المعاصي، ولو أنه عمل طاعة لضاقت نفسه؛ لأن المعصية تجر إلى المعصية وتنفّر من الطاعة، وهذا مثل الذي يشرب الخمر فيصاب بالإدمان، والذي يشرب الدخان فيصاب بالإدمان ولا يستطيع أن يتركه.

وقوله: (سَيِّحُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ)، يعني: شيخ الصوفية.

- (١) عجز البيت من بيت مشهور لابن نباتة المصري في ديوانه (ص ١٩٩)، وصدوره: «تداويت من أخطائه برضاه». ومن بيت مشهور لجسّون ليلي في ديوانه (ص ١٢٢)، وصدوره: «تداويت من ليلي ليلي عن الهوى».

فصل

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعَاصِي تَزْرَعُ أَثْمَانَهَا، وَيُوَلِّدُ بَعْضُهَا بَعْضًا، حَتَّى يَبْرُزَ عَلَى الْعَبْدِ مَقَارِفُهَا وَالْخُرُوجُ مِنْهَا، كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: «إِنْ مِنْ عَقُوبَةِ السَّيِّئَةِ السَّيِّئَةُ بَعْدَهَا، وَإِنْ مِنْ ثَوَابِ الْحَسَنَةِ الْحَسَنَةُ بَعْدَهَا» (١).

فَالْعَبْدُ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً قَالَتْ أُخْرَى إِلَى جَنِبِهَا: اْعْمَلْنِي أَيْضًا، فَإِذَا عَمِلَهَا، قَالَتْ الثَّانِيَةُ كَذَلِكَ، وَهَلَمْ جَرَاءً، فَضَاعَفَ الرُّيْحَ، وَتَزَايَدَتِ الْحَسَنَاتُ.

وَكَذَلِكَ كَانَتْ السَّيِّئَاتُ أَيْضًا، حَتَّى تَصِيرَ الطَّاعَاتُ وَالْمَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَا زِمَةَ، وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً، فَلَوْ عَطَلَ الْمُحْسِنُ الطَّاعَةَ لَضَاعَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَأَحْسَ مِنْ نَفْسِهِ بِأَنَّهُ كَالْخَوْتُ إِذَا قَارَقَ النَّهْرَ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ، وَتَقَرَّ عَيْنُهُ.

وَلَوْ عَطَلَ الْمُجْرِمُ الْمَعْصِيَةَ وَأَقْبَلَ عَلَى الطَّاعَةِ، لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَضَاقَ صَدْرُهُ، وَأَعْيَتْ عَلَيْهِ مَذَاهِبُهُ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا، حَتَّى إِنْ كَثُرَ مِنَ الْفَسَادِ كَثُرَ مَقَارِفُهَا، وَغَيَّرَ لَذَّةَ يَجِدُهَا، وَلَا دَاعِيَةَ إِلَيْهَا، إِلَّا بِمَا يَجِدُ مِنَ الْأَلَمِ بِمَقَارِفِهَا.

كَمَا صَرَّحَ بِذَلِكَ سَيِّحُ الْقَوْمِ الْحَسَنُ بْنُ هَانِيٍّ، حَيْثُ يَقُولُ (٢):

وَكُنَّا سِرْبِنْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

(١) ذكره ابن تيمية في أمراض القلوب (ص ٣٩)، ونسبه إلى سعيد بن جبير.

(٢) البيت منسوب للأعشى ميمون بن قيس الشاعر الجاهلي. يُنظر: ديوانه (١٢/٢). ولا يوافق الحسن بن هانئ بيت في معناه، يقول فيه:

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء ودأني بالتي كانت هي الداء يُنظر: ديوانه (ص ٥٣).

ومنها: أنه يُسَلِّخُ مِنَ الْقَلْبِ اسْتِفْخَاحَهَا، فَتَصِيرُ لَهُ عَادَةً، فَلَا يَسْتَفْخِجُ مِنْ نَفْسِهِ وَرُؤْيَا النَّاسِ لَهُ، وَلَا كَلَامَهُمْ فِيهِ.

وَهَذَا عِنْدَ أَزْوَاجِ الْفُسُوقِ هُوَ غَايَةُ التَّهْذِيقِ وَتَحَامُّ الدَّلَّةِ، حَتَّى يَفْخَرُ أَخَذَهُمُ بِالْمَعْصِيَةِ، وَيُحَدِّثُ بِهَا مَنْ أَمْ يَعْلَمُ أَنَّهُ عَمِلَهَا، فَيَقُولُ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ كَذَا وَكَذَا.

وَهَذَا الْقَرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يَتَعَاوَنُ، وَتُسَدُّ عَلَيْهِمْ طَرِيقُ التَّوْبَةِ، وَتُلْقَى عَنْهُمْ أَبْوَابُهَا فِي الْغَالِبِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «كُلُّ أُمَّتٍ مُعْتَاقٍ إِلَّا الْجَاهِلُونَ»، وَإِنْ مِنَ الْإِجْهَارِ أَنْ يَسْتُرَ اللَّهُ عَلَى الْعَبْدِ ثُمَّ يُصْبِحُ يَفْضَحُ نَفْسَهُ وَيَقُولُ: يَا فُلَانُ عَمِلْتُ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا، فَهَتَكَ نَفْسَهُ، وَقَدْ بَاتَ يَسْرُهُ وَيُخْفِيهِ^(١).

ومنها: أَنْ كُلَّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فِيهِ مِيرَاثٌ عَنْ أُمَّةٍ مِنَ الْأُمَمِ الَّتِي أَهْلَكَهَا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ. فَالْطَّيِّبَةُ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمٍ لَوْ طِ، وَأَخَذَ الْحَقُّ بِالزَّائِدِ وَدَفَعَهُ بِالنَّاقِصِ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمٍ شُعَيْبٍ، وَالْعُلُوُّ فِي الْأَرْضِ بِالنَّفْسَادِ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمٍ فُزْعُونَ، وَالتَّكَبُّرُ وَالتَّجَبُّرُ مِيرَاثٌ عَنْ قَوْمٍ هُودٍ.

فَالْمَعَاصِي لَا يَسُ ثِيَابَ بَعْضِ هَذِهِ الْأُمَمِ، وَهُمْ أَغْدَاءُ اللَّهِ.

وَقَدْ رَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي كِتَابِ الزُّهْدِ لِأَبِيهِ عَنْ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ:

«أَوْحَى اللَّهُ إِلَى نَبِيِّ مِنْ أَنْبَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ قُلْ لِقَوْمِكَ: لَا تَدْخُلُوا مَكَاخِلَ

(١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩)، ومسلم (٢٩٩٠) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومنها - وهو من أخوفها على العبد -: أَنَّهَا تُضْعِفُ الْقَلْبَ عَنْ إِزَادَتِهِ، فَتَقْوِي إِرَادَةَ الْمَعْصِيَةِ، وَتُضْعِفُ إِرَادَةَ التَّوْبَةِ فَشَيْئًا إِلَى أَنْ تَنْسَلِخَ مِنْ قَلْبِهِ إِرَادَةُ التَّوْبَةِ بِالْكُلِّيَّةِ، فَلَوْ مَاتَ بِنَفْسِهِ لَمْ تَأَبِ إِلَى اللَّهِ، فَيَأْتِي بِالْإِسْتِعْقَارِ وَتَوْبَةِ الْكَذَّابِينَ بِاللِّسَانِ بِشَيْءٍ كَبِيرٍ، وَقَلْبُهُ مَقْنُودٌ بِالْمَعْصِيَةِ، مُصِرٌّ عَلَيْهَا، عَازِمٌ عَلَى مُوَاقَعَتِهَا مَتَى أَمَكَّتْهُ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْأَمْرَاضِ وَأَقْوَرِهَا إِلَى الْهَلَاكِ.

الشرح:

ومن عقوبات المعاصي أنها تؤثر في القلب فتضعف فيه إرادة الخير وتقوي فيه إرادة الشر، وهذا شيء معروف، فإن العصاة أثقل شيء عليهم الطاعات، وأخف شيء عليهم المعاصي؛ بالفونها ولا يستريحون إلا بها وبمجالسها، وينفرون من مجالس الخير، وتنقل عليهم الطاعات، هذا شيء واضح فيهم، وهذه عقوبة لهم أن الله سبحانه وتعالى حرّمهم لذة الطاعة، وجعل فيهم شهوة المعصية، وذلك بسبب الذنوب بلا شك.

وكذلك يحرمون الصديق في التوبة، فتضعف إرادة التوبة لديهم شيئًا فشيئًا، حتى إن أحدهم يستغفر الله بلسانه، ويكثر من الاستغفار والتوبة، وهو مقيم على المعصية ومصر عليها، وهذا لا تكون توبته صحيحة، إنما هي توبة باللسان فقط، وهذه لا تنفع؛ لأنها توبة الكذابين.

أَعْدَائِي، وَلَا تَلْبَسُوا مَلَابِسَ أَعْدَائِي، وَلَا تَرْجُوا مَرَائِبَ أَعْدَائِي، وَلَا تَطْعَمُوا
مَطَاعِمَ أَعْدَائِي، فَتَكُونُوا أَعْدَائِي كَمَا هُمْ أَعْدَائِي»^(١).
وَفِي مُسْنَدِ أَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
«يُبَيْتُ بِالسَّيْفِ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ، حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَخُدَّ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُيَلَّ
رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْيٍ، وَجُيَلَّ الدَّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي، وَمَنْ نُسِبَهُ
يَقُومَ فَهُوَ مِنْهُمْ»^(٢).

الشرح:

كذلك من عقوبات المعاصي: أنها تسلب الحياء من الإنسان، فلا يستحي
من فعل المعاصي، ولا يعتبرها شيئاً يمان عليه، خلافاً للمؤمن فهو يستحي،
وفي الحديث عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِذَا لَمْ تَسْتَحْشَ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»^(٣).
فالحياء يمنع الإنسان من فعل الأشياء القبيحة، ومن لم يكن عنده حياء
فإنه لا يأفف من قبحها ولا يراها شيئاً.

وقوله (حَتَّى يُفْتَخِرَ أَعْدَاؤُهُمُ بِالْمَعْصِيَةِ) يفتخرون بالمعاصي، ويعتبرونها
رجولة وتقدماً، وفهماً للحياة، إلى غير ذلك من الأمور، ولا يعتبرونها معاصي؛

(١) لم أنف عليه في المطبوع من الزهد للإمام أحمد، والذي فيه برقم (٥٢٣) من قول عقيل بن

مدرك السلمي، وأخرجه ابن أبي الدنيا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٥٠/٢) واللفظ له، وأبو دارود (٤٠٣١) مختصراً، من حديث ابن عمر

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٤) من حديث أبي مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

لأنهم ليس في قلوبهم أنفة وكرهية للمعاصي، أخذت منها هذه الأشياء بسبب
كثرة الذنوب.

وقوله: (وَهَذَا الصَّرْبُ مِنَ النَّاسِ لَا يُعَافُونَ)، إذا بلغوا هذا الحد فإنهم
لا يعافون من المعاصي، كما قال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا

الْجَاهِلُونَ»، فالذين لا يستحيون من المعاصي لا يعافون منها، أما الذي
يستحي فإنه يُعَافَى بإذن الله.

ومعنى المجاهرة: أن يتحدث الإنسان بالمعاصي التي فعلها؛ مفتخراً
بها وإن لم يفعلها علانية، لكن حديثه عنها وذكره لها فيه مجاهرة بالمعصية.

وقوله: (أَنْ كُلَّ مَعْصِيَةٍ مِنَ الْمَعَاصِي فَهِيَ مِرْيَاةٌ عَنْ أَمْرِ مِنَ الْأَمْرِ)، كما

يقال: لكل قوم وارث، فالذين يبخسون المكاييل ويغشون الناس في
العاملات وارثون لقوم شعيب أصحاب مدین، والذين يقعون في جريمة
اللباط وارثون لقوم لوط، والذين يتكبرون على الناس ويتجبرون وارثون
لقوم نوح وقوم عاد.

وقوله: (لَا تَدْخُلُوا مَدَاخِلَ أَعْدَائِي) فيه النهي عن التشبه بالكفار
والأشقياء في ملاسهم ومجالسهم وعاداتهم، وهذا كقولهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ
تَشَبَّهَ يَقُومَ فَهُوَ مِنْهُمْ»، فمن علامات محبة المعصية التشبه بأهلها.

وقوله: (يُبَيْتُ بِالسَّيْفِ) يعني: الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله،
(بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ) أي: قبل الساعة؛ لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو آخر الرسل،
وليس من بعده رسول حتى تقوم الساعة، وبعثه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من علامات
الساعة، (حَتَّى يُعْبَدَ اللَّهُ وَخُدَّ لَا شَرِيكَ لَهُ) هذا هو الغرض من الجهاد: عبادة

وَمِنْهَا: أَنَّ الْمَعْصِيَةَ سَبَبٌ هَوَانِ الْعَبْدِ عَلَى رَبِّهِ وَسُقُوطٌ مِنْ عَيْنِهِ.
قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: «هَانُوا عَلَيْهِ فَعَصَوْهُ، وَلَوْ عَزُّوا عَلَيْهِ لَعَصَمَهُمْ»^(١).
وَإِذَا هَانَ الْعَبْدُ عَلَى اللَّهِ لَمْ يُحَرِّمْهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ بَالٌ﴾^(٢).
قَتْنَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ [الحج: ١٨]، وَإِنَّ عَظَمَتَهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهِمْ
أَوْ خَوْفًا مِنْ شَرِّهِمْ، فَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ أَحَقَرُ شَيْءٍ وَأَهْوَنُ.
وَمِنْهَا: أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يَرْكَبُ الذَّنْبَ حَتَّى يَهْوَى عَلَيْهِ وَيَضَعُ فِي قَلْبِهِ،
وَذَلِكَ عَلَامَةُ الْهَلَاكِ، فَإِنَّ الذَّنْبَ كُلَّهُ صَغَرٌ فِي عَيْنِ الْعَبْدِ عَظَمٌ عِنْدَ اللَّهِ.
وَقَدْ ذَكَرَ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ
كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى
أَنْفِهِ، فَقَالَ بِهِ مَكْذًا فَطَارَ»^(٣).

الشرح:

قد يفتخر العاصي بمعصيته، ويعتز بنفسه، ويرى أنه بلغ من الرقي
والحضارة والتقدم الشيء الكثير، ولكنه حين عند الله جَلَّ وَعَلَا، ومن هو أنه أن
الله تركه في المعصية، ولو كان كريماً على الله لكره إليه المعصية، كما قال الله

- (١) ذكره ابن الجوزي في ذم الحوى (ص ١٨٤) عن الحسن البصري، وأخرجه الأجرى في
الشرعة (٩٦٩/٢)، وأبو نعيم في الحلية (٢٦١/٩)، والبيهقي في الشعب (٤٤٧/٥) من
كلام أبي سليمان الداراني.
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

الله عَزَّوَجَلَّ، لأن الله خلق الناس لعبادته، فإذا تركوها وجب جهادهم حتى

يرجعوا إليها.

وقوله: (وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُحْمِي)، وهو الغنائم، فالغنائم حلال
لهذه الأمة، وهي أحل شيء: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا غَنِمَتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٩]؛
لأنها أموال أعداء الله رجعت إلى أولياء الله، والله إنما خلق هذه الأموال لأهل
الإيمان.

وقوله: (وَجُعِلَ الذُّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي) هذا شيء واضح
أن المعصية فيها ذل، فكل من خالف الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذليل وإن كان
يرى أنه عزيز ويتظاهر بالعزة، إلا أنه ذليل في قلبه. فالأمر ليس بالمظاهر،
وإنما هي بما في القلوب، فالعاصي ذليل في قلبه وإن ترفع وأظهر للناس أنه
قوي، والمؤمن وإن ظهر للناس أنه فقير ومستضعف إلا أنه قوي عند الله،
وقوي في قلبه بقوة إيمانه.

تبارك وتعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّئًا وَهَوًّا عَسَىٰ أَنَّهُ عَظِيمٌ﴾ [الزمر: ٢١]. فقد يستعصر الإنسان الذنب والمعصية، وهي عظيمة عند الله جلّ وعلا.

وقوله: ﴿إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يَرَىٰ ذُنُوبَهُمْ كُلًّا﴾ في أصل جمل جمل أن يقع عليه، المؤمن يخاف من المعاصي، وإذا فعل معصية ثقلت عليه، وتلب إلى الله، ويرى كأنها جبل يخاف أن ينقض عليه، وأما الفاجر فعلى العكس يستخف المعاصي، ولا يراها شيئاً، كأنها ذباب وقع على أنه فطار، لا يلتقي لها بالاً.



تبارك وتعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنُ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]. فأهل الإيمان يحب الله إليهم الطاعات، ويكره إليهم ضدّها، وأهل الشقاء بالعكس يحب الله إليهم المعاصي، ويكره إليهم الطاعات، ولو أكرمهم لمعهم من المعاصي، وشغلهم بالطاعات، لأن الله جلّ وعلا يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، أما هذا الدين فلا يعطيه إلا لمن يحب.

وقوله: ﴿وَإِنَّ عَظَمَهُمُ النَّاسُ فِي الظَّاهِرِ﴾؛ لأن الناس قد يعظمون صاحب المعصية لغرض من الأغراض، إما لطمع فيها عنده، أو خوفاً منه لجبروته، فهم يعظمونه في الظاهر لكنهم في قلوبهم يلعنونه ويحتقرونه، فليس تعظيم الناس للشخص دليلاً على أنه عظيم عند الله عزّ وجلّ إلا إذا كان على طاعة، وقد جاء في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ الْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ قُلَامًا فَأَخْبِنِي، فَيَجِبُ جِبْرِيلُ، فَيَنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ قُلَامًا فَأَحْبِبُوهُ، فَيَجِبُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبْرُ فِي الْأَرْضِ» (١).

فإذا كان هذا الشخص على طاعة فتعظيم الناس له في مكانه؛ لأن الله أحبه فهم يحبونه، وأما إذا كان على معصية فتعظيمهم إنما هو في الظاهر، وأما في الباطن فهم يحتقرونه.

وقوله: ﴿أَنَّ الْعَبْدَ لَا يَزَالُ يَزْكِبُ الذَّنْبَ حَتَّىٰ يَمُوتَ عَلَيْهِ وَيَضَعُ فِي قَلْبِهِ﴾، هذا كما سبق أنه يتهاون بالمعاصي، وتصير عليه سهلة ولا يستعيبها، قال الله

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢١٣٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصل

ومنها: أن غيرة من الناس والدواب يعود عليه شؤم ذنبه، فيخترق هو وغيرة يشؤم الذنوب والظلم.

قال أبو هريرة: «إن البخاري كتموت في وكبرها من ظلم الظالم»^(١).

وقال مجاهد: «إن النجاشي تلعن عصاة بني آدم إذا استندت السنة، وأمسك الظلم، وتقول: هذا يشؤم مني»^(٢).

وقال عكرمة: «قواب الأضي وهو أثمها حتى الحنافس والعقارب، يقولون: شيعنا القطر يثوب بني آدم»^(٣).

فلا يخفى عقاب ذنبه، حتى يلعنه من لا ذنب له.

الشرح:

الجباري طائر معروف، قد تموت في وكبرها من الجوع بسبب ظلم الظالم، فهي لم تفعل شيئاً، لكن ظلم الظالم كان سبباً في هلاكها، ولهذا يقول العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعُنُونَ﴾ [البقرة: ١٥٩]: إن اللاعنين هي الدواب والطيور، تقول: إنما خررنا الرزق بسبب ذنوب بني آدم.



- (١) أخرجه الطبري في تفسيره (١/٢٦)، والبيهقي في الشعب (٩/٥٤٤).
- (٢) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/٥٤)، وابن أبي الدنيا في العقوبات (٢٧١).
- (٣) أخرجه الطبري في تفسيره (٢/٥٥).

فصل

ومنها: أن المغصبة ثورث المال ولا بد، فإن العز كل العز في طاعة الله تعالى، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ مَجْمُوعاً﴾ [فاطر: ٢١٠]، أي: فليطلبها بطاعة الله، فإنه لا يجتمع إلا في طاعة الله.

وكان من دعاء بغض السلف: «اللهم أعزني بطاعتك ولا تلحقني بمغصبتك»^(١).

قال الحسن البصري: «إنهم وإن طلقوا بسم البغال، وهم لم ينجحوا بسم البرافين، إن ذل المغصبة لا يقارن قلوبهم، كفى الله إلا أن يذل من عصاه»^(٢).

وقال عبد الله بن المبارك^(٣):

رأيت الذنوب تُبْسُثُ القلوب وقد يورث المال إختارها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير إنفسك عفتها
وهل أفسد السوء إلا الملوكة وأجساد مسورة وفيتها

الشرح:

ومن آثار المعاصي: أنها تورث المغصبة، قال الله جل جلاله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ مَجْمُوعاً﴾ [البقرة: ١٥٩]، أي: يورث العز كل العز في طاعة الله، فإن العز كل العز في طاعة الله، فإن العز كل العز في طاعة الله، فإن العز كل العز في طاعة الله.

- (١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥٥/٢) من كلام جعفر الصادق.
- (٢) تقدم تخريجه (ص ٢١٦).
- (٣) ذكره ابن عبد البر في جملة المجالس (ص ٢٤٦).

فصل

وَيَتَبَيَّنُ: أَنَّ الْمَعَاصِي تُسَبِّدُ الْعَقْلَ، فَإِنَّ لِلْعَقْلِ نُورًا، وَالْمَعَاصِي تُظْفِقُ نُورَ الْعَقْلِ وَلَا يَبْقَى، وَإِذَا طُفِعَ نُورُهُ ضَعُفَ وَتَقَفَّصَ.

وَقَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: مَا عَصَى اللَّهُ أَحَدٌ حَتَّى يَغِيبَ عَقْلُهُ. وَهَذَا ظَاهِرٌ، فَإِنَّهُ لَوْ حَفَرَ عَقْلُهُ كَحَجَرَةٍ عَنِ الْمَغْصِيَةِ، وَهُوَ فِي قَبْضَةِ الرَّبِّ تَعَالَى، لَوْ تَحْتِ قَهْرِهِ، وَهُوَ مُطْلِعٌ عَلَيْهِ، وَفِي دَارِهِ عَلَى بَسَاطِهِ، وَلَوْلَا كُنْهٌ شُهِدَ عَلَيْهِ تَأْطُرُونَ إِلَيْهِ، وَوَاعِظُ الْقُرْآنُ بِهَا، وَوَاعِظُ الْإِسْلَامِ بِهَا، وَوَاعِظُ النُّبِيِّ عَلَيْهَا، وَوَاعِظُ النَّارِ بِهَا، وَالَّذِي يَتَوَكَّلُ بِالْمَغْصِيَةِ مِنْ خَيْرِ السَّائِيَةِ وَالْآخِرَةِ بِهَا، مَا يَحْتَصِلُ لَهُ مِنَ الشُّرُوبِ وَاللَّذَّةِ بِهَا، فَهَلْ يُقَدِّمُ عَلَى الْإِسْتِهَابَةِ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَالْإِسْتِخْفَافِ بِهِ دُونَ عَقْلِ سَلِيمٍ؟

الشرح:

ومن آثار المعاصي أيضًا: أنها تفسد العقل الذي ميز الله به الإنسان على غيره، فإذا فسد العقل أصبح يرى الحق باطلاً والباطل حقاً، وتنعكس عليه الأمور.

فالغصاة لديهم عقول ولكنها فاسدة، فتكون مثل عقول الجاهل، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ١٨]، فعندهم عقول هيكية، وليس عندهم عقول نيرة وصورية.

وقوله: (فَلْيَكُنْ لَهُ حَفَرَ عَقْلِهِ كَحَجَرَةٍ عَنِ الْمَغْصِيَةِ)، لو يقدم على فعلها

المعزة بغير طاعة الله عز وجل، فالطاعة ذلة، وإن كان أصحابها يرون أنها عز، ولو كانت مظاهرهم قوية، ويرون المراكب الفخمة، ويلبسون اللابس الرقيقة، ويسكنون القصور، لكن قلوبهم ذليلة، أذلهم الله سبحانه وتعالى، فهاتوا حتى عند أنفسهم، فصاروا في هوان وذل، وإن كانوا عندهم مظاهر فلا تستمعهم.

وقوله: (وَقُلْ أَقْسَدَ الدِّينُ إِلَّا الْمُلُوكَ)، يعني: الظلمة منهم، وليس كل ملك ظالم، فسل على أن يحكمكم من الملوك، ويوسف عليه السلام من الملوك، فليس كل ملك يكون مفسداً للدين، ولكن الملوك الفجرة هم الذين يفسدون الدين، أما الملوك الصالحون فإنهم يصلحون الدين.

وقوله: (وَأَكْبَرُ سُوءٍ)، يعني: علماء السوء الذين يفتنون الناس بالهوى والشهوات، فيفسدون الدين بهذا، خلاف علماء الحق، فهؤلاء يصلحون الدين.

فصل

وَمِنْهَا: أَنَّ الذُّنُوبَ تُدْخِلُ الْعَبْدَ تَحْتَ كَعْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّهُ لَعَنَ عَلَى مَخَاصِي، وَالتَّيَّ غَيْرَهَا أَكْبَرُ مِنْهَا، فَبِمَا أَوَّلَى بِدُخُولِ قَاعِهَا تَحْتَ الدَّعَةِ. فَلَعَنَ الرَّائِضَةَ وَالْمُسْتَوِضَةَ، وَالنَّوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوِصِلَةَ، وَالنَّوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوِصِلَةَ، وَالنَّوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوِصِلَةَ (١). وَلَعَنَ أَكْلَ الرِّبَا وَمُؤْكَلَهُ وَكَاتِبَهُ وَشَاهِدِيَهُ (٢).

الشرح:

هناك معاصي لعن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من فعلها، يعني: دعا عليه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باللعنة، وهي: الطرد والإبعاد من رحمة الله، فكل من وقع في هذه المعاصي التي عليها اللعن أصابته هذه اللعنة. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن على معاصي معروفة، فَلَعَنَ الرَّائِضَةَ

(١) كما في حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّائِضَةَ وَالْمُسْتَوِصِلَةَ، وَالنَّوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوِصِلَةَ». أخرجه البخاري (٥٩٣٧)، ومسلم (٢١٢٤). وحديث ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّائِضَاتِ وَالْمُسْتَوِصِلَاتِ، وَالنَّوَاصِلَاتِ وَالْمُسْتَوِصِلَاتِ، الْمُتَعَرِّاتِ خَلْقَ اللَّهِ، مَا لِي لَا أَلْعَنُ مِنْ كَعْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ فِي كِتَابِ اللَّهِ». أخرجه البخاري (٤٨٨٦)، ومسلم (٢١٢٥). وفي رواية عند أحمد (٤١٥/١): «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «لَعَنَ اللَّهُ الرَّائِضَةَ وَالْمُسْتَوِصِلَةَ وَالنَّوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوِصِلَةَ»». أخرجه مسلم (١٥٩٨).

(٢) كما في حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَكْلَ الرِّبَا، وَمُؤْكَلَهُ، وَكَاتِبَهُ، وَشَاهِدِيَهُ». أخرجه مسلم (١٥٩٨).

والذنب بعد الذنب يسبب الرآن، وهو الغلاف الذي يكون على القلب

فيحجب عنه نور الإيمان.

وقوله: (وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ الْقَلْبَ يَصْطَلُّ مِنَ الْغَضَبِ) أول شيء أن يتأثر

القلب ويمرض، ثم يزيد به المرض حتى يموت، وإذا مات قلبه صار ما فيه

فائدة، وإن كان جسمه حي وقوي، لكن قلبه ميت.

